

القيم الاجتماعية والانسانية
في
رباعيات الياس فرحات

دكتور

عبد الرحيم محمود زلط

كلية الآداب - جامعة طنطا

القيم الاجتماعية والانسانية في رباعيات الياس فرحات

الياس بن حبيب بن جرجس فرحات أحد أعلام شعراء المهجر الأمريكي الجنوبي والمولود في كفر شيحا من أعمال لبنان عام ألف وثمانمائة وثلاثة وسعين ، وكان حظه من التعليم لم يتعد المرحلة الابتدائية ، حيث انصرف إلى المهن اليدوية كالنجارة وصناعة الكراسي من القش ، وكان ينظم الشعر العامي في فترات راحته فكان زجالاً موهوباً على الفطرة يغذيها بدكاء متوقد .

وهجر الياس في صباه تلك الحرف اليدوية ليعتمد على ما تعلمه ويعمل منضداً للحروف في جريدة « الوطن » ثم جريدة « الحديقة » ثم مجلة « البطيركية الأرثوذكسية » في دمشق وكما هجر صباه مهجر بلاده ورحل إلى البرازيل ، ثم تزوج وصار له أولاد وأخذ يعارع حياة المهجر ويكابد مرارة لكفاح ويعاني فشل المسعى بين تربية الدواجن والماشية وصنع الأطعمة الشرقية وتصنيف حروف المطابع والتجول لحساب التجار الكبار وانطواف بالآفاق لجمع اشتراكات الصحف ونحو ذلك مما صوره في قصيدته « حياة مشقات » التي يشمر فيها إلى سوء حظه وإلى تكرر أيامه ولياليه على ونيرة واحدة لا تترك أملاً في تحسن أو تبدل ، وقال معبراً عن ذلك :

وأستعرضُ الأيامُ يومى الذى مضى دليلاً على يومى الذى أتربُّ
طوى الدهرُ من عمرى ثلاثين حجةً طويت لها الأصقاعُ أسعى وأدأبُ
أغرب خلف الرزق وهو مشرقٌ وأقسمُ لو شرقتُ كاذبٌ بهربُ

وعن نقله على عجلة صعب يجرها جوادان ، وتقطع المسافات الطويلة بحثاً عن مكسب يأتيه أو رزق يرضى به صاحب التجارة ، أما طعامه وشرابه .

مما كان يصادفه في الطريق حتى قال :

فشرِبُ مما تشرِبُ الخيلُ تارةً وطوراً تعافُ الخيلُ ما نحنُ تشرِبُ

وعن حياته بين أصناف البشر الذين كان يتعامل معهم ويصبر على ما فهم من بهل
وضعف ذكاء :

أعاشر من لو عاشر انقرد بعضهم لما رد عن داروين قر مقب
وأنصت مضطرا إلى كل أبله كأني بأسرار اليلاهة معجب

كل هذا ينتهي في آخر الأمر إلى أن هذا البؤس الذي عاش فيه منذ نعومة
أظفاره حتى صار مشولا عن أسرة قد علمه الكثير من طباع الناس ، وهو المتقف
ذاته الذي لم يقرأ صفحة في علم النفس وإنما استقى ما فكر فيه وما دار في خياله
ونظمه درراً من عيون الحكمة من صفة التأمل وبعد النظر والتفكير في صمت ،
وكان كل ذلك يزيد صلابه وقوة إرادة وقدرة تحمل حيث قال :

أقول لنفسي كلما عضها الأمي فآلمها صبراً ففي الصبر مكسب
لئن كان صعباً حملك الهم والأذى فحملك من الناس لاشك أصعب
فلولا إباء مازج الطبع لم يكن لثلي مجيء في البراري ومذهب
حياة مشقات ولكن لبعدها عن الدل تصفو للأيم وتعذب

لقد كان فرحات مشهوراً بصلابة الرأي ، فلا يلين ولا يخالي ، ولو أدى
ذلك إلى إطائة شقائه أو إضاعة أصدقائه أو إلى تعويت فرص ثمينة عليه وهو
القاتل :

لا تنتظر أن تراني راضياً فأنأ أرضي صموي ولو أغضب أصحابي

وصلابته تفرض عليه أن يكون صريحا في إبداء رأيه ، جريئا في قالة الحق
حتى نراه يقول :

وإني لمطبوع على الصدق جاهر بآياته والنصل في النطع بقطر
أقول لذي العينين «إنك مبصر» وللأعمور المغرور «إنك أعمور»

وكان ذا تمدى وكبهاء لنوائب الدهر ، فلم تلتن قناته أمام ظروف الحياة
الشاقة التي كان يعيها ، ولو اقتضى الأمر أن يقف محاربا دنيا الناس ليصل إلى
هدف اسمي في حياته ، فقال يخاطب دهره :

فكن يادهرُ ماءً أو سرايا فإني عنك والدياً نروم
ليست لكن سيوف منك دزخاً تحدث عن مناعها الثلوم
أنا ابنك دون شك غير أني غرعتك حين يفتقد الغرم

كما امتاز بيقظة الضمر وعفة النفس ، فقال في قوة نفسية عظيمة وفضيلة
كبرى برغم ما كان فيه من تعاسة ويؤس حياة :

توالث موم الحياة علياً ولولا ضميري لعشتُ خلياً
فكم ثروة تعجز الحاسينا تلمت وهي لبعض التجار
فقلت أفر بها هارياً فقال ضميري حذار حذار
فأرجعتها وغسلت يديا ولولا ضميري لكتت غنياً

إن تعلم فرحات لنظم الشعر لم يكن نتيجة دراية أو دراسة لعلم العروض أو
استظهار دواوين الشعراء العرب قبله ، أو حفظه لعيون فصائد العرب في العصور
المختلفة ، أو مساجلاته مع أترابه حتى قوى عوده في النظم ، وإنما كانت الحياة
مدرسته ، طيورها المفردة ، ونسيمها العليل ، وجدواها المضاحكة ، ونظرات
اللسان وعبرات الخزانى ، فحق له أن يعتبر كل ذلك جامعة تضمه :

فذا الكون جامعة الجامعات وذا الدهر أستاذها المعثر
ففى المبكيات بيان جميل ولى المضحكات معانٍ غر

لقد كان فرحات شاعراً مطبوخاً أشد الشعر قبل أن يعرف أعارضه .
وهو ركن متوقد الفؤاد شهيد العارضة لو صادف بسطة من العيش ولولا حملان
ثقلان ناء تحتها من فقر وعيال لعرّ نظره بين الشعراء ... لقد أجاد فرحات في
جميع ألوان الشعر ، ولكنه فتح باب الحكمة على مصراعيه وكذلك الأمثال
والمواعظ وكان صادقاً في أحاسيسه ومشاعره صدقه في سلوكه ، وكان يمشى في
نهجه دون أن يبالى بالأشواك تملأ ندرته وعمورة وألماً .

لقد كان من أهم ما نظمه فرحات تلك المجموعة التي سماها « ربايعات
فرحات » وهي عبارة عن كتيب صغير الحجم يتخوى على شعرية ذات أربعة

الآيات في موضوعات مختلفة بين دينية واجتماعية ووطنية ووصفية حكيمية ويغلب على أكثرها روح التهكم والنقد اللاذع والتشائم ، ولكنها تدل على إخلاص وإنسانية ونبيل في القصيدة الاجتماعية . وتختلف تلك الرباعيات عن رباعيات سابقه من حيث وحدة الغرض أو طول القصيدة ، وإنما هي خلاصة فكر وثمرة خيال متوقد ، وتجربة شعرية صادقة عاشها فرحات وعبر عنها بإخلاص وشعور فياض ووجدان المهرب الناصح الأمين .

إن هدف فرحات الأول من نظمه تلك الرباعيات هو بناء مجتمع صحيح متكامل على أسس قوية وقيم إجتماعية وعدة إنسانية خالصة ، فإن فرحات رأى أن يقيم المدينة المفاضلة في مجتمعه ، وحق له فقد رأى طباع الناس المتغيرة ، ورأى تلونهم وتدهور أخلاقهم متى تمكن الوضع منهم ، وتفشى فيهم طباع غير الشرفاء الذين اعتبروا المجتمع قسمة ونهباً بينهم فداسوا فقراءهم وامتصوا دماء ضعافهم ، وأصبحت حياة الغاب أسعد حظاً من حياة البشر وما فيها من طباع صاغها فرحات نظماً ، خاصة وأن فرحات قد كره الأغنياء الذين كانوا لا مثاله في وطنه الأم وأرغموهم على الرحيل والهجرة ، ولما عاش بدار الغربة في مهجره لم يسعد بمن عاشر ، ووجد مجتمعا اختلفت فيه السائخ الخلقية وكان عنوان حياة ذلك المجتمع البقاء للأقوى والإقامة للمعتدى على الآخرين خاصة وأن هؤلاء الناس وجدوا في مجتمعهم الجديد أساليب من الحياة لا تنفق والقيم الإنسانية ، ووجدوا أمماتاً من الناس يميلون إلى التحلّي بتلك الخلق ليكونوا عصبة شعارها حطم أن تحطم وكأنها جاهلية القرون الأولى عادت على أرض المهاجرة في أمريكا .

كل هذه الصور التي شاهدها فرحات وعاش بينها جعلته يقف مشدوداً مصوراً بصلق وقرب من كل منظر يراه حتى تمثلت فيه كل براعة تصويرية لما رأى ، وكانت خلاصتها تلك الرباعيات التي تعتبر قمة الدراسة الإنسانية لطباع البشر وتصور تصرفاتهم وتعديل سلوكهم في ثوب الحكمة والموعظة الحسنة .

وإذا استعرض الإنسان ما تضمنته الرباعيات من قيم إجتماعية ، ودستور أخلاق ، وحكمة وعظيمة لها له ما احتواه ذلك الكتيب الصغير بما لم يتسع له

فكر مشاهير الشعراء في العصور السابقة .

وقد صنف الباحث هذه القيم في تلك الرباعيات إلى مجموعات متجاسمة ، وقد ألفت بينهما وحدة الفكر ، وبعد النظر الندي يدل على رجاجة العقل وسعة الأفق ، وقد دارت حول العناصر الآتية :

أولاً : الدعوة للإخاء والتواضع :

لم يثبت في تاريخ البشرية أن عاش قوم في تنافر أو تباعدت قلوبهم ومشاعرهم ، ومعهم الحقد وملاً صنورهم الكبير ، فالجتماع البشري في أي بقعة من الدنيا لا ينسجم حياة أو ينعم بالائتلاف إلا إذا كان الإخاء رائده والتواضع هدفه الأسمى ، قد حثت الكتب السماوية جميعها على الإخاء وأوصت به حتى تعم الإنسانية بما تضمنته وصايا الدين وحثت عليه .

فما أحسن دعوة فرحات للإخاء بدءاً بالجوار والحث على رعاية حقوقه بصرف النظر عن معتقداته ، فالإخاء حق في الدنيا لكل إنسان بعيش مرتبطاً مع غيره من بني البشر ، عليه واجبات تجاه الجميع وله لديهم حقوق ، وفي هذه الدعوة التي صرح بها فرحات بعد نظر فيها هو القوم في بعض بقاع العالم العرفي من وطن واحد وبينهم شقاق وحروب طاحنة استمرت عشرات السنين في لبنان واليمن واندلعت منذ أكثر من ست سنوات بين العراق وإيران ، ولو تدبر الناس أمر دينهم فيما يأمر به من المحبة والإخاء والسلام والأمان للجميع لعاش الناس اخوة يذكرون نعمة الله عليهم إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً ، وإنما هي دعوة الإنساق والمطامع وغرائز السيطرة والبطش والإستعلاء وعدم احترام حقوق الإنسان ، فلو تدبر الناس أمورهم الدينية لما وقعوا فيما هم فيه الآن ، ولو أدركوا معنى آيات فرحات لتكاتفوا صفوا واحداً ضد عدو واحد ، واشتركوا بكل جهد ضده ، وحافظوا على عدتهم وعتادهم لينالوا من ساموهم سوء العذاب . وسجلات التاريخ خير شاهد وناصح لهم وليتهم استمعوا إلى فرحات حين قال (رباعية : (1) :

با حار حار عنى الظالمون كما حاروا عاصم ونم برحمن ونم بر
خشي العريب ونخشي بعضنا فإدا حل اليلاء شكونا العظيم نلقصر
فيما انتفاض والأوطان نجمعنا قم نغسل انفا بمحافيه من وضر
مادمت محترماً حقى فأت أخى أمنت بالله ثم أمنت بالحجر

أما نظرة فرحات لتواضع فقد صاعها في ربايعتين ، بين في كل واحدة كيف يكون الإنسان متواضعا حتى يألفه الناس وينعم بأخوتهم الصادقة ، ويأمن من تلوسهم متى كان متواضعا لين الجاب ، والناس خصوم للمتعالي نباطش ، وكارهون لكل من تظاون عليهم أو حط من شأنهم فالكل لآدم وآدم من تراب ، ويضرب فرحات بذلك الهدف أحسن الأمثال معتنا أنه كم من عظيم في قومه نرفع عليهم وهجر التواضع وظن أنه بمكانته الإجتاعية الرفعة بهم قد بلغ كل ما يحظر على حدد الإنسان ، فدما هوى كانت القاضية ، فلم جد من العوامل التي رفعت قدره في زيف ما يقوم عليه أو يشد أزره ، فندم ولات حين ندامه فخير لأمثاله يتحلوا برداء التواضع حتى نعمهم الرفعة والسكينة (رابعة ٤٤) :

يأمن يحاول أن يبغي بقوته حكماً أصراً عنى نفيذه القدر
لني للزمانى متى هب عوصفه إن العصور إذا لم تنز تنكسر
كبه عاهل بلغ الجوزاء ثم هوى عنها إلى دركابت أنذل ينحدر
يرنو زلى محدد والسيف مشتمم والشايج ممتن والعرش مندثر

ومن دعوته لتواضع كذلك قوله من يرتفع وكأنه على عرش الملك باق ، وكان الأيام تدوم له بغيرها وراثها ، فيهتف منددا بأصحاب انتيجان أولئك الذين يفتنون الناس عبيدا لهم ، ويبسون أردبة الكبر وانفطرسة ويطنون نخلود في الدنيا وما هم فيها بمخلفين ، وإنما إلى حياة أخرى فيها نلساواة وتطبيق العدالة في كل صغيرة حيث لا يظلم ربك أحدا ، وحيث لا ملك لأحد في الآخرة وإنما الملك لله الواحد القهار (رابعة ٨٨)

أرب الشايج إلك بين جيل يكبل نك الهوان بما تكيل

وانك فوق عرشٍ لست نسري أيقنى اليوم نختك أم يزول
تتبه على الأنام وتزد ربهم ولكن عمرُ نيك لا يطول
فملكك زائلٌ وغناك ماضٍ وحالك لا محالة مستحيل

فلو نظر أى انسان إلى فكر فرحات في ذلك البيت الأخير من أن الملك
زائل والغنى مشحول إلى فناء ودوام الحال من المحال لأدرك حقيقة كل الناس ،
وتعقل كما تعقل فرحات في رسم تلك الصورة بهذه البراعة النفسية وكأنى به
وقد صور الموقف اجتماعيا ونفسيا منفردا من هؤلاء الذين يتمسكون بالفانية
ويسلكون سلوك الأشرار المتكبرين .

ثانيا : القدوة الصالحة :

أبرز فرحات صوراً عديدة في لوحات فنية كيف يكون المرء قدوة
صالحة لغيره ، مؤكداً أن هذه القدوة هي خير بناء في المجتمع وأحسن لبنات
فيه ، ويقدر ما يحتفظ المجتمع من هذه العناصر بقدر ما تكون درجة تقدمه بين
شعوب العالم ، فلا خير في مجتمع قد فقد قدراته الصالحة ، تلك المجموعة من
الناس الذين يحملون أمانة الرقي والتقدم بأفعالهم وخصالهم وسماتهم التي تخلد
عبر الأجيال بعد رحيل أصحابها .

ولو طالعا صورة القدوة الصالحة في سجلات التاريخ لوجدنا مشاهير
الصحابة الذين عاشوا في مدرسة النبوة ، ونجد تلاميذ مدارس العلماء
الصالحين والفقهاء المبرزين في محيط العالم الاسلامي والعرفي ، كما نجد أساطير
العلم وفروعه المختلفة الذين عاشوا في الحضارات المختلفة وقدموا للإنسانية ما
تشهد به طبقات العلماء وأولو الرأي والتجربة .

وفي محيط التربية نجد جولات فرحات حيث يركز على أن القدوة
الصالحة تكون في المعلمين والآباء الذين يلقنون أبناءهم دروس الحياة وسلوكهم
بهم سبل الهداية وصدق الرعاية ، فمن لم يكن قدوة صالحة لابنه أولادهم خراب
وخسرت تجارتهم ، وكسد سوقه في مجتمعه (رباعية ٥٠) .

المراء يولد شريراً فإن غفثت عين المهذب عنه هكذا نبأ
والأرض صلاحاً وإن قلت من طاب من أهلها قبا ومن حبا
أنت المظالم فيها عن بيتك إذا صل انقاسد في آذانهم نفا
إن لم يكن قدوة للولد صالحاً أنفقت مالك في إصلاحهم عبثاً

ومن صور القدوة الصالحة التي تناولها فرحات مصاحبة الكرام ولو على
شطف العيش وفوته والبعد عن صداقة الأدياء ولو تقبلوا في رياض الثراء ،
وكذلك يدعو إلى الضر في صداقة الأبي فان حياته نور وإن اعترضه الإظلام
والظنين أحيانا ، فقد تعودت نفوسهم على الرفعة والإباء والأنفة والوفاء بما
عاهدوا والآخرين عليه ، بينما يفتن أدياء الناس في التستر وراء خدعهم وما
يقدمون عليه من مفاصد مقلقة ومهلكة حبا في المظهرية والفتن (رابعة)
(١١٠) :

سر والكريم على التقاد ولا تسر والأدياء على نسيج الخمل
واعش الظلام مع الأبي فليله مهما تكبد وادلهم سينجلي
إن الأبي يبيع أطلس زوجه وحليها ليفي الديون إذا ابتنى
وبني النداءة بسرقرن ليشترؤا نسائهم حفل الأطلس والحلي

ومن صور القدوة الصالحة ان يتخير الانسان شريكة حياته من
صاحبات المنبت الطيب ، الا يخر الانسان باختيار زوجه من رياض القصور ،
فان من ينظر لأن تكون حياته مرتبطة بالثراء فقد خاب وحسر ، ومن اطمانت
نفسه إلى اختيار ذات الأصل العريق التي تتحمل أعباء الحياة ومشقاتها فهو
الرايح السعيد ، فان خير النساء من حسنت متبأ وصبرت محسبة على ما
الحياة من ضيق حتى يعمد ذلك لها (رابعة) (١١٦) .

إن كنت ترغب في الزواج فلا تسر بين القصور بأعين شرهات
فلبعض أزهار الحقول محاسن تزرى بكل أزهار الجنات
ولطائف شقى الدين تزوجوا مالا وجاهاً لا حميد صفات
ولطائف حملوا الهوان لأنهم طلبوا الكرامة في بنات سراة

ثالثاً : السعى لطلب الرزق والقناعة :

من أحسن ما قاضت به قرينة الشاعر الياس فرحات أن يدعو الإنسان إلى السعى لطلب رزقه ، والا يعيش عائلة على غيره فالإسلام وكل الأديان قد هتت عن أن يعيش الإنسان عائلة وان عليه أن يكده ويكدح فلا حياة لكسلان أو متخاذل ، وطلب الرزق يتطلب القناعة عما في يد الآخرين ، فسادام الإنسان ساعياً فهو المحقق أملة والمفنع ذاته بكل ما يحصله .

ومن صور السعى في طلب الرزق ما ذكره فرحات قائلا (رباعية

: (٢٨)

حلى الجهول إلى الباري ليرزقه قوتاً ونام فعاث العمر جوعاناً
ولو سعى في سبيل القوت مجتهداً نكأن من أمره غير الذي كانا
لين العرائن نلآساد رازقة كيشاً وقد يرزق التجول قطعاناً
والحط بخدم بعض الناس عن عمه حيناً ويتخذ كل الناس أحياناً

إن هذه الصورة التي تحدث عنها فرحات تعيد الإنسان إلى موقف الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب حين رأى عبداً يعكف بالمسجد ، فسأله من أين رزقه فقال : ان له أخا يسعى ليرزقه ، فبهه وقال : قم وارزق فأخوك خير منك ، وبين له أن السعى لطلب الرزق خير من الاعتكاف في المسجد للعبادة فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وذلك تصديق لقول الحق تبارك وتعالى « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » (الملك ١٥) .

ومن ضروب السعى لطلب الرزق أن يقنع الإنسان بما يهبه الله ، فقد قسم سبحانه نعمه بين الناس بالعدل ، فهذا وهبه مالا وذا علماً والآخر قدرة وقوة اقناع وذاك حجة وبيان .. والله عادل في تقسيم نعمه ولا راد -- لقسمته أو احتجاج على تقسيمه النعم بين خلائقه وليس على الإنسان إلا أن يقنع بما وهب ، فبه ثراء مفخرة (رباعية ٨٥) :

لعرك إن من أعطى فلاناً ضروب المال أعطاك البراعا
فلا تطمع باندال العطاها ولا نطلب لها فيك اجتناعا

أترجو أن تصير أختاً ثراءً لتقدر أن تقوين وأن تطاعاً
وهذا القرش تدنو منه شراً فينقر منك مبتعداً ذراعاً

ويصرح فرحات بأن السعي لطلب الرزق فرض فلا ينبغي على الإنسان
أن يلبجأ في مصدر رزقه إلى الآخرين مهما كانت درجة قرابتهم ، وكذلك شأن
من يمد يده لیساعده الآخرون يتساوى ومن يلقي بنفسه إلى التهتك وسرعان ما
تهون عليه حياته كما هانت عليه نفسه كسلا وعائلة على الناس (رباعية
: (١٠٠)

جهدك في سبيل العيش فرض فلا تلجأ لعم أو لخال
فكم عم الويل منه وكم خال من الاخلاص خال
إذا البر استحال عليك فاجمع لما يغنيك عن طلب التوال
فما في مد عنقك للمواضي صعوبة مد كفك للسؤال

وهذا المعنى مصداق لقول رسول الله ﷺ لأن يأخذ أحدكم حيلاً
ويحتطب خيراً له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه وقوله عليه الصلاة
والسلام « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

أما دعوة فرحات للرضا والقناعة فتتمثل في هذا القول الذي يعيب فيه
على الناس تكاسنهم ومجاهلهم سبل الحق في أن يقنعوا بالله قد قسم لكل إنسان
رزقه وكفله له ، وقد عاب على الناس كيف أنهم توصلوا إلى الدرجات الرفيعة
من العلم والمعرفة وما عرفت القناعة إليهم ميلاً .

ولعل فرحات بذلك يشير قضية إنسانية نفسية وهي سيطرة الجشعين على
ذوى الحاجة واضطهادهم وعدم قناعتهم بما وهبهم الله مما يشير حفيظة النفوس
ويورثها البغضاء (رباعية ١٢٩) .

ما للأنام يفتشون عن السنى والشمس نغمز أجيّة وسهولاً
تخدوا لمندهم ميلاً مظلماً ومضوا فضلوأ مشدا وسلا
نظروأ ظلوعاً في الفضاء نمنناً وتفتنا خاضوا الخضم نزولاً
ونمنموا كلّ القنوي ونم يزل فن القناعة عدّمهم جهولاً

• من مسرور القناعة أن يدرك الإنسان أن ما جمعه ليس له مند إلا ما القدر
 • من قائل : وليتوانى الإنسان الحزين . وأن الإنسان يترك خلفه ما جمع
 من مال فاص عن حاجته ، فخير له أن يكون قنوعاً حين يجمع ، ولا يحرص على أن
 يكون من الذين يتطلع الناس إليهم بكثرة ما جمعوا ، وليتذكر دوماً أن الإنسان
 دخل الحياة عارياً ويخرج منها كذلك ، فخير له أن يكون قنوعاً راضياً لا يدخل
 انهم على نفسه فيفسد عليه ملذاته (رابعة ٢) .

يا ساكن القصر لا تأسف لفرقتي سكنى الفصور وسكنى التراب سبان
 إن انتقلتك من قصر إلى حديث مثل انتقلتك من حان إلى حان
 حيث الحياة فقيراً عارياً دمعاً فاذهب غنياً بتابوت وأكفان
 وأترك وراءك ما جمعت من ذهب فالمال محقر في العالم الثاني

رابعاً : من ألوان الناس :

لم يكن فرحات بالرجل الحكيم الذي أصدر الحكمة النظمية فحسب ،
 بل كان العالم الإجتماعى الدارس لأصناف البشر ، وسلوك كل فى الحياة ،
 ومتى يكون الانسان واضحا ومتى يستدعى المكر والخديعة لتلازمه فترة زمنية
 محددة حتى يحقق مأرباً يارتداء لباسهما ، ومتى يكشف القناع عن وجهه فى
 تبجح وفحش من القول غير هيب لموقع ألقائه من أعراض الناس ومخاتم .

وما كان إدراك فرحات لكل هؤلاء القوم عن دراسة فى الأسفار وإنما
 كان ذلك عن خبرة طويلة وتعامل بين البشر حتى كانت تلك الدراسة العملية تطبيقاً
 صادقاً لما تحدث عنه رجال علم النفس وبناء المجتمع .

فقال مصنفنا من حوله من الناس أن فيهم أحياء أموات ، يتحسر عليهم حين
 يبعون عزيمتهم وكرامتهم ويعددهم فى سجلات الموتى ، فالموت أحن بأمانهم
 وكذلك من يتهاون فى أعز ما يملك لا حياة له ، وقد ورثهم سلوكهم هذا نوعاً
 من اللامبالاة وعدم اليقن فى الأمور فتصرفوا كما تتصرف السائمة ، ولا هم
 لهم إلا الأثرء وملء الحيوب وبناء الدور ، والبعد عن كل ما يغلب لهم قدراً
 من الإنسانية أو الكرامة لو كلفهم ذلك شيئاً (رابعة ٣) .

حولني من الناس أموات وما برحوا
 يمشون كأناس من دار إلى دار
 أبكى عليهم بأشعاري فتضحكهم
 مع ما تثير من الأشجان أشعاري
 قوم يبعون للشارين عزتهم
 وانعرض والدين والدنياً يدينار
 لا يفرقون إذا أترؤا أكلتهم
 تاج من العار ثم تاج من العار

ويقول عن تبدل الشعور عند بعض الناس ، مع أنهم قد حققوا مآرب
 ومكانة مرموقة في الحياة ، ولكن كانت بضاعتهم التي عرفهم بها الناس
 بضاعة راكدة ، وقد اضطر الشاعر أن يعاشرهم على ما فهم حتى يعدل من
 سلوكهم ويحولهم إلى إنسانيته التي رسمها لهم (رباعية ٤) .

لولا ببيض رجاء في النفوس لَمَا
 راقث لذي أدب في موطن كاس
 يلقى الألوف من المستحجرين ولا
 يلقى - ولو وجد - فرداً فيه إحسان
 بعض النفوس نسور كلما جنحت
 للجو شدت على أعناقها الناس
 فالعلم والحق والإنصاف اجنحة
 والجهل والبطل والإجحاف أمراض

ومن ألوان الناس من يتلون ويعاشر أصدقاءه معاشرة الخرباء ، فإذا
 فاز بمطلبه قلب لم ظهر الخن وتحول عن شخصيته الأول ، وقد أنس الشاعر
 إلى مثل هذه الشخصية وقدم لهم من المعروف الشيء الكثير ، ولكن هو التلون
 الذي لازمه وألح عليه أن يركن إليه (رباعية ٦١) .

سرينا في الظلام معاً وكنا
 نفرط الخوف نأنس بالوميض
 وكنت إذا سقطت عليك أحتج
 كما يحنو الطبيب على المريض
 فمذ لآخ الصباح مدلت سراً
 على عيبك من جهل عريض
 تحاول ظلمة وأريد نورا
 فنحن إذا على طرفي نقيض

كذلك يصور لنا فرحات صورة أولئك الذين يدخلون بما اعطاهم الله ،
 ويكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ل منافعها الشرعية التي أرشدهم الله
 إليها ، وكذلك فان هذا النصف من الناس لا حياة له بدون محبة الآخرين
 وعطفهم عليه اشفاقا ومودة لقاء ما يذل لهم من مال ومعروف ، والويل لكل
 الويل لمن يتكر لقومه ولا يكون دالم العطاء لهم (رباعية ١٩) .

من كان يدخرُ الأموال مختلساً نأني بهلاياه بما كان يدخرُ
ومن يمشح حاصرأماء الغراب ولا ينفى العطاش تمت موته البئرُ
كم من غنى جيل كئنا شمت عيأه وجه فقير خف يسترُ
نرو إلى ماله الوراث قائلة لا يؤكل الجوزُ إلا حين ينكسرُ

فيأها من حكمة راتقة تلك التي صبا فرحات في قالب الوعظ إن هذا
الذي ييخل بماله على قومه يستغن عنه ويذم ويمنى ورثته موته حتى يرتعوا
فيأخلف ما لم نعم به البشرية ، وكان حربيا أن يتخذ وجائز له في حياته حتى
انفقه في وجوهه المشروعة ولم ييخل به ليكوى به .

خامسا : الحث على الالتزام بالشمائل الخلقية :

لقد حرص الشعراء جميعا أن تكون لهم رسالة إنسانية غير العصور في
حث الناس على الالتزام بالشمائل الخلقية الرفيعة التي تعلى من شأنهم وتبقى
ذكرهم ، كما اهتمدى الكثيرون من رجال التربية بما قدمه لهم هؤلاء الشعراء بما
يتناسب وأسس التربية الحديثة ، وأدرك فرحات في مهجره أن من واجبه
الإنسان أن يشو بهذه الشمائل الخلقية ويبعث في الناس أفكاره هداية لهم
وطريقا مستقيما ، وزين بها رباعياته في شكل وعظي يدرك معناه كل إنسان ،
فلا نحتاج كلماته إلى إعمال للفكر أو قدح لرناد الفهم ، فشعر فرحات من
السهل المطلوب والبلاغى المرغوب .

ويدعو فرحات إلى تهذيب السلوك الإنساني وعدم الحبث في صداقة
الناس ، والمرأة في الحق ، وعدم اللين في مواجهة الأشرار حتى لا يرمى
الإنسان باللين والضعف ، وكل مرعظة مما حملته هذه الرباعية يفيض الكلام
فيها ونضرب بها الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ولكن فرحات جمعها في ثوب
قشيب نسر النفس رؤيته ، ويرتاح الفكر إلى كل ما فيه ، حتى يمكن أن يدرج
في أساليب التربية الحديثة للناشئة حيث يقول (رباعية ٢٢) .

هذب طباغك فالإنسان يعوزه حتى يلقب بالإنسان تهديب
ولا تداج امرأ طابث سريرته ففي المداحاة للأحرار تعديب

وكذت القائل الغادي بحضرته فخير ما يردع الكذاب تكذبت
ولأ تكن لنا في حجرة شرمست فليس يسلم كيش حارة ذيب

وليس الناس في بقاع كثيرة من الدنيا يدركون معنى البيت الأخير حتى
يقدرُوا لأنفسهم أقدارها ، فالتاس صنفان : ضعيف لا حول له ولا قوة ،
وياعش فيه العذر أقوى نبي الإنسان من غير جنسه ، والويل كل الويل أن
يعايش مسالم شرسا ، وليكن بين الضعفاء اتحاد حتى يرهبوا ذلك الباطش
الغادر .

ويبرز فرحات في رؤية نفسه كيف وقف يدافع عن المظلومين ، وقد
سخر نظمه فضحايتهم وتنديداً بأفعالهم ، وتقدم يعطى للإنسانية خلاصة دفاعه
عهم وإن كان لم يوفق في هذا الدفاع ولتلك الحرب الإنسانية الضروس ضد
الظلم والظالمين ، فيوضح للناس أن تمسكهم بالحق ونداه دوما وعدم التصريط
منه يمكن أن يعلم الجميع كيف لا يرضى الإنسان بالمفاسد ولا يسكت عنها
ويبتد بها وما على الإنسان إلا أن يكون كالسيف قطعاً في قول الحق والالتزام
به ، والتمسك بحقه وإن اتعبه حمل ذلك الحق والنداء به دوما ، فلا شك أنه بالغ
مأ به محقق ما تصبو إليه نفسه (رباعية ٢٠) حيث قال :

ناريتاً ضد جيوش الظلم متقيماً منها برأس يراع يقذف الحمما
ثم انسحبت من الميدان مرتعداً والظلم جترق الأفراد والأمتا
كن كالحمام وقتل ما أنت معتقد للمستبد ولا ترهب إذا احتدما
إن الجياد تلوك المحم مزبدة غيظاً ولكنها لا تبلغ اللجما

وعن البصير في الأمور بمقاييس التابه المتفحص في كل خطوة يخطوها ،
وعن اليقين في كل احوال الأخبار وعدم الركون إلى الشك فليس هناك من
الأمر ما ينبغي للإنسان أن يقول فيه كلمة شك أو ظن ، وإنما على الإنسان
دوما أن يكون على يقين مما يقول أو يخطط أو يفعل ، وبعد النظر في كل شيء
أمر مرعوب حتى يرى الإنسان ذاته من محيط الشك إلى بؤرة اليقين ، وهذا
ما قاله فرحات في (رباعية ٤٦) :

أَنْظُرْ إِلَى الْأَمْرِ كُلِّهِ جَوْهَ لَدَى إِدَاءِ رَأْيِكَ فِيهِ بِأَمْنٍ الْخَطْلَا
وَاحْفَظْ لِنَفْسِكَ حُرَّ الْحَشْرِ عَنْ عَمْرِ نَاقِيِ الْبَيْتِ وَلَا نَلْفَاةً تَحْتَلَا
مَنْ كَانَ فِي حِلِّ عَالٍ وَقَالَ أَرَى فِي لَجَةِ الْبَحْرِ حَوْماً بِشِبْهِ الْجَمَلَا
فَلَا تَصْدَقُهُ تَصْدِيقَ امْرِئٍ، عَمِي وَلَا تَكْذِبُهُ مَا لَمْ تَصْعَدِ الْجَبَلَا

كما يدعو الإنسان ألا يضيق صدره بأمر الحياة ، وأن عليه أن يكيف نفسه لكل ما خلقه الله في الكون إذ ليس في قدرة الإنسان أن يكيف ما خلق الله لإرادته هو ، والا يتضح أو يتروم بما يراه في الحياة ، فالدنيا للجميع وليست لحساب فرد يسيرها كيف أراد أو يجعلها تنجح نهجاً إبداعياً بطله .

وهذه الرباعية تفيض فلسفة إنسانية استطاع فرحات أن يسج على منوالها هذا النظم الرائع الذي يهب الإنسان صبرا وقوة تعمل على ما هو موجود بالفعل في الحياة ، وهذه الفلسفة التي يثقف بها فرحات جاءته بعد أن عركته الحياة وصعب عليه قهرها فلم يجد بدا من الخضوع لتسوتها والإنصياع لسنديتها ، وهو في هذا المجال صابرٌ مصيرٌ لغيره ، حتى يقبل الكل على حياتهم غير متبرين أو ضائقى الصدور (رباعية ٤٨) .

بِأَمْنٍ بِخَافِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ مَسْتَرَا خَلْفَ الدِّيَابِرِ لَاحِ الصَّبْحِ فَاتَعَدِ
أَوْقِفْ فَكُلَّ مَقَرٍّ سَوْفَ يَغْبِرُهُ مَوْجُ الضِّيَاءِ بِهَذَا الْيَوْمِ أَوْ بَعْدِ
قَلْبٌ مَا أُرْدَتْ وَذَمُّ الْحَادِثَاتِ وَلَمْ إِنْ الطَّبِيعَةُ لَا تَعْمِي إِلَى أَحَدِ
وَالشَّمْسُ تَبْرُغُ فِي آبِ الْبِرْوَجِ وَلَوْ حَرَّتْ وَبَلَغَتْ الْحَفَاشِ وَالرَّمَدِ

ويدخل اليأس فرحات مدخلا جديدا في الشائيل الخلقية حيث يتوجه باليوم للنساء وخاصة من تفتخر منهن وتنتعلى على من سواها من النسوة وبين لمن ان هذا الفخر بمجامع الدنيا من ثياب وريثة وحلى عرض زائل ، وكل ما تملكه هذه المفتخرة ربما آل اليها من جراء النهب والسلب الذي اعتادته في حياتها إذ هؤلاء النسوة سلطان على التجار ، وان المرأة التي تفتخر بغير حميد انصافات وطيب الشائيل لاخلق لها ، ويعلم ذلك تأديبا لمن ونصحاً لسلوكلهن الشائيل الذي ينم عن نفسية كاذبة ينبغي البعد عنها (رباعية ٦٥) .

أسدنى الفخور على التواهي برين الصخر دون الفضل عارا
سمعتك فخورين فضايق صدرى وكاد القلب ينفجر انفجارا
على ألى أفون كلام جر مرق عن حقيقته السارا
حريرك خلسة وحلاك هب وإن كذبى فلى النجارا

ومن خير ما هتف به فرحات هذه الطائفة من الشرائع الخلقية طلب
الدفاع عن الحق ، الإستاته فيه والدعوة إليه ، فان الانسان الذى يهان الحق
أمامه أو يفرض فيه لا خير منه يرجى ولا أمل فى حياته ، وربما هتف فرحات
بهذا حين أدرك سباع حقوق الناس فأعلن أن الحق يستميت الإنسان فى
الدفاع عنه ويستشهد الأبطال فى إظهاره وإعلاء شأنه (رباعية ١٦٣) .

دافع عن الحق المهان ولو تكاثرت الخصوم
غير مما لك فى الدفاع من انتصارك فى الهجوم
الحق نجيم أو شككت تخفى أشعنه الغيوم
فإذا إختفت لا الشمس نج سدى العالمين ولا النجوم

ويدعو فرحات إلى كظم الغيظ كلون من ألوان الأخلاق الحميدة ، وما
ذلك ألا تمثيا مع القيم السلمية الموصلة الانسان إلى بر الأمان متى كان قادرا
على عقاب من يبادره بالإيذاء ، وقادرا على كظم غيظه كحصرة إنسانية على غيره
من انتطاولين ، وكذلك حدث فى تلك الرباعية على الا ينسى الانسان الاساءة
عن عمد حتى لا يرميه الآخرون بالضعف والامسكانة (رباعية ٧٠) .

نعاش الغيظ إن لاقيت شرأ بدار كلها شرأ بدار
فان المرء فى دنياه رسم يعيط من الشرور به إطار
ولا نسى المسىء إليك عمدا وليس له بذاك عليك نأر
فواحدة بواحدة لعدن بغير أو بشر يتطار

ومن الشرائع الخلقية ان يرفض الانسان الدل ، ولا يقبل الصميم ، وإن
من ركن إلى الضعف والاستدلال بعدى الآخريين ويرميهم بما ليس فيهم ، بينما
قوى النفوس قوى الإرادة شديد صراحة الرأى تعلق كلمته ويرتفع شأنه ، وإذا

استثنى من الذل في أمة من الأمم قضي عبداً وسهل على الآخرين النيل منها
وتحطيم معنويات شعبها .

وقد ساق فرحات فلذ الرباعية للدلالة على بعد نظره في أن بعض أبناء
الأمة العربية قد هدهم الذل وتحولت أحوالهم ، ولو اجتمعت كلمتهم لقويت
شوكتهم ورفضوا الذل وهنوه ، أي غلبوا الاستعمار ومن أراد بهم السوء أو
هزيمتهم (رباعية ١٠٢) .

أرى في شعبنا بعضاً ذليلاً وأخشى أن يصير البعضُ كلُّهُ
فداءً للذل في الأرواح معيد كداء السُل في الأجسام حللاً
وما يعدي العزيمُ العبدُ عزاً كما يعنى الذليلُ الحرُّ ذلاً
فإن الخُل ليس بصير خيراً ولكن قد تصير الحرُّ خلاً

وليس الذل من الاستعمار فحسب بل كان لبعده نظر فرحات أثر في أن
الأغنياء يستذلون الفقراء والمحتاجين بأموالهم ، ويتسلكون رقابهم بما يقدمونه
لهم ويمنون عليهم حتى يؤذون مشاعرهم ، فما أحق الإنسان بهجر طلب المال
من هذه الطبقة المتعلية المستذلة لغيرها بما وهبها الله من مال وعرض زائل
وأولى بالإنسانية أن تحافظ على كيانها بعيدة عن استرقاق الأغنياء الفقراء
بأموالهم وهذا ما عناه فرحات بقوله (رباعية ١٢٢) .

مالي لمال الأغنياء ووفيره ميل فما للأغنياء ومالي
رغب سوى بهم فإن نزارهم في مسمى يصل كالأغلال
أخشى مصادقة الغني لأنني أخشى على عوامل الإذلال
فإذا أنا استقرضت قرشاً واحداً من ماله يستوهب استقلالتي

وعن أخلاق التجار وجشع بعضهم وتعبدتهم الكذب والمغالاة في الربح
إلى حد الاعتصاب والنهب من الناس يحذرنا فرحات بالا يمتنى الانسان أن
يكون مثلهم يحرص على تكوين ثروة وكذا أموال طائلة ، ولعل فرحات قد
أدرك حين رأى أن الكثيرين من الشعراء الذين هاجروا هجروا الشعر وانغرفطوا
في سبل التجارة واعتبرهم قد ضلوا السبيل لما شاع عن التجار من فساد أخلاق

وعشر ونفاق حتى يروجوا بضاعتهم وما هم بخائرين إلا أنفسهم وما يشعرون
(رباعية ٢١) .

يا شاعر العرب أحلم أن يقال غداً كحل التجارة أعنى شاعر العرب
سر في سبيل العلق الشواك منفرداً وليذهب الناس أفواجاً الذهب
إن التجارة للأخلاق مقبرة أما النتائج فالأكفان للادب
إن ضاق عيشك كن مساح أحلية لا تاحراً يقتني بالغش والكذب

إن في نظرة فرحات إلى هدم الأخلاق في بعض التجار إنما تؤكد حرص
الشاعر على تثبيت القيم الإنسانية والاجتماعية في صفوف الناس جميعاً ، ويؤكد
هذا المعنى في صراع التجار وارتكابهم الآثام في سبيل الإثراء ، وبأنه فعلهم
هذا كل من طابت سريرته ونقت نفسه ، ويوضح ذلك في رباعية ضرب فيها
مثلاً بنفسه حيث قال (رباعية ٨٠) .

فلاسفة الأعراب من قرون قد احتقروا التجار وقد أصابوا
فما سوق التجارة غير غاب تاهيش في جوانبها الذئاب
رميث بها وما في الكف ظفر أكود به ولا في الفك ناب
فلم يلم من تمزيق جلدي ولم تلم على جلدي الشيا

وقد أدرك فرحات قيمة الصدق في بناء القيم الإنسانية والاجتماعية
لمحث عليه وحذر من الكذابين ، فإن قولهم يفسد الحياة ويشوهها ويصيب
أهلها بحية الأمل ، فملا أجدنا أن نبتنع إلى حديثه عن الأفكين الذين وطنوا
أنفسهم على الكذب قولاً وفعلًا وأثر ذلك في حياتهم وحياة الآخرين ، وما
أحسن أن يتعد الإنسان عن مجال وجود هؤلاء النفر لما يشونه من سموم فتاكة
في جسد الأمة ، وما يزرعون من بذور الشقاق والتهلكة بين صفوف الناس ،
وبذلك أسس تربية ينبغي على كل إنسان أن يتحلى بها وأن يمثلها قولاً وفعلًا
وإحباطاً لتفكير الكذابين وهدمًا لما يقيمونه من صروح آمال الدمار والفتن وهذا
ما عناه فرحات في « رباعية ٣٧ » وما ورثهم ذلك الإفك من الحقد والفتن
والحسد الدائم لبني الإنسان .

إني بليت بأفأكين ما نطقوا إلا نحيث فقد السمع والبصر
عاشوا على دهنهم حتى إذا تشلوا من حفرة الذل حلوا هوة البطر
ناموا وأحفادهم تجاز من سهر مضن إلى سهر يفضي إلى سهر
إن كنت تطلب نفعاً من مودتهم فالنفع أجمع أن تجو من الضرر

وهناك صورة أخرى من الكذب والبهتان الذي لا يسمعه الإنسان وإنما يراه ذلكم الذي يفعله بعض الناس حين يموت عزيز عليهم بمدحونه كذباً وبيئاناً على صفحات الصحف ، وينسبون إليه كل صفات الخير والمعروف ، ويصفونه بما لن يكن فيه نفاقاً وكذباً وذلك ما نهي عنه فرحات في وعظ تربوي وصورة اجتماعية منفردة حتى لا يقدم عليها من صفت نفوسهم ورفضت شمائهم ، ولعل الشاعر بذلك يهدف إلى تنقية المجتمع بأسره من تلك الآفات المكثفة ، وهذه البدعة المهلكة للأموال المهيجة لكوا من النفوس (رباعية ١٥٤)

اسلاقنا كانوا إذا مات امرؤ يستأجرون لئدبه نوانا
يسين لليبب العزيز فضيلة صدقاً وألف فضيلة بيئانا
أما الذين عرفتهم في عصرنا ممن يريدون العلو مكانا
يستأجرون لمدحوا أمواتهم صحفاً أحط من النوادب شاننا

أرأيت كيف انبرى الشاعر للقضاء على الكذابين والبعد عن المنافقين يريد بذلك أن يبنى مجتمعاً مثالياً خالياً من كل ما يصب كيانه بالهدم ، الخلقى أو يهدده بالدمار متى دبست القيم وتناساها الناس ، ولعله بذلك قد أدى دوره كمصلح اجتماعي في هذا الجانب .

لقد أدرك فرحات دور المرأة الكريمة الشائلا في بناء مجتمعها فنادى أن تكون النساء على جانب كبير من عفة النفس ، والتسك بكل القيم الإنسانية وخاصة في مظهرها فدعاها إلى عدم التبرج وعاب عليها حين تكشف عن محرمانها للآخرين ، وأظهر مفاصد ذلك في كل أبناء الأمة ، فان هذه الانسانة التي تتبرج تضر نفسها وتلحق الضرر الأشد بغيرها من ضعاف النفوس ، حين تستهري بفتتها الآخرين ، وكأني بالشاعر يسير في تلك الدعوة وفق منهج

إسلامي حيث وجد هذا العمل الشائن فأذكره لئلاسه وهدفه في شتمه
وكان التبرج سمته ، فحافظ على الأني ورعى كيانها حتى نظل عفتها في مظهرها
وجوهرها على السواء .

وقد ضرب فرحات على وتر العفة ومهديب النفوس بقضية أن من تبرج
لا تأنف قريتها وإنما أن تكون بها من أعين الجميع فهي شرمة أفاقه نبت
صومها لتوقع الآخرين في شرآكها ، وخير للإنسانة المهذبة خلقا الكريمة منبأ
أن تهجر هذا التبرج وتتعد عن الزينة الزائفة ، وتقع بحسبها الرئائي وجمالها
الذي صنعها الله عليه فمن أحس من الله صنعا .

وتلك والحق يقال دعوة صريفة إلى نقيه ما نعايه في أيامنا هذه حتى
نعود للأني كرامتها (رباعية ١١٩) .

تترجُ الخوذ الوفاخ لنتهي عن ليل سوتها يصبح جينها
ولو انها حسنت خليقتها انتهت عن حسن خلقنها وعن تحسيتها
إن التبرجُ للقريبة أسطر تفسرها طمع بغير قريتها
وإذا الصية لم يلونها الحيا عجزت يد الرسام عن تلويها

وفي نفس الموقف يدع فرحات في رباعية أخرى (١٢٦) يبين فيها أن
تكون المرأة حسنة حتى في وضع الخمار ، فلا تدعه يظهر من محاسنها أكثر مما
يجب ، فان جمال الأنثى متى كان خافيا كان أدعى للاحترام وأجمل لثالثنها
الخلقية :

تترقع المتبرجات سوافراً براقع من نسجهن كفاف
يصغر هاتيك الحدود تبرجا فالصبع باد والحدود خوال
ذات النقاب ترى ملامحها كما هي من وراء نقابها الشفاف
أما التي تحد التبرج برقعاً فهي التي تخفي عن المشتاق

وما أحسن تلك اليقظة الفكرية في محيط القيم الإجتماعية والإنسانية أن
يكون الإنسان مثالا طيبا يخفى كما يطلب من الفتاة أن تكون صورة طيبة

لزوجها الذي نغارها عن يمين وإيمان لا عن تيرج و... ج خداع (رباعية
(١٢٧)

لمت الفتاة على نيرجها فما استنتت إلا سنة خرقاء
هي ملك كالظل الرفيق فأتبع إن نك اعوجاً طبعاً تكن عوجاء
مادنياً وهي الي تجرى الذي ترصي ميولك فيه والأهواء
أظهرت ميلاً للجمال ولم تكن بحيلة فنجمت إرضاء

ومن القيم الاجتماعية التي طرفها فرحات في قصة التيرج الذي يخدع
ويغذب الشاب للأقدام على الزواج أن يتأق الإنسان ولا تسبقه عاطفته نحو
تزوج بنيه إلا عن وعى وتجربة رائدة ، فإن خداع الرؤية أمر لا يدوم وسرعان
ما نتكشف الحقائق ويعلم الإنسان أن ما تعرض له سراب زائل لا حقيقة
وراءه ، وتلك دعوة أكيدة لكل من يقترب من شباك خداع الرؤية أو شرك
التيرج وخير للإنسان من أن يحزن ساعة للرفض من ندم الحياة للإقدام الأهوج
(رباعية ١٢٤) .

خدعت بجاذبها الفتى وبعينها فقدا ضحية حسنها والمآذب
ورحمته فسيب في تزويجه ثقةً بأنك قائم في واجب
لا تحزن لعاشق متحديق متعلق بوعود لحيط كاذب
فتندم تلقاه من متزوج أدعى لحزنك من تحرق عازب

سادساً : بعض طباع البشر :

ساق فرحات لوحات نية لطباع بعض الناس في مواقف انسانية
متعددة ، ومن أهمها :

١ الحذر من المحتالين : لقد تفهم الياس فرحات من طول معاشرته
لبشر أن فيهم الخير ومنهم الشرير ، فكما حث على التقرب من الخيرين والسر
في ركابهم حذر من القرب من المحتالين ونصح بالبعد عنهم . فكم ثقة ضالة
مضلة تشكل خطراً دائماً للمجتمع ونفت في عضد وحدة الأمة ، والمحتال قد

امتلاً صدره حقداً وعظماً ورأى أن بيت قومته في محلات معادفة وإن يكن به
أكثر من فريسة في كل يوم يخال بما أنه في من دهاء ومكر ليقعها في شركه ،
وسرعان ما يستجيب ضعاف النفوس لهم ويخضعون لهم خضوعاً أباياً يصعب
العكاز منه .

ومن صور المحتالين ما يفعله جماعة من الدجالين يستهونون بأفعالهم
سطاء القوم ويلعبون بأفئدتهم ، وذلك ما صورته فرحات في قوله (رباعية
١٢)

فتنم مخاطبة الأرواح مثبته هيات ليس الهذر إثبات
كفوا عن العالم المجهول أنسه كأنهم إذا أطلق حيات
ولا تضعوا رفات الثواقدين فقد نودى براحتهم هذى الخرافات
أنكذبون عليهم في حياتهم وتذنبون إليهم بعد أن ماتوا

وليست تلك الصورة السابقة مما عرضه فرحات بغائبة عن لب الأدكيا
عما تفعله من خطير القيم الإجتماعية في التموس ، ومثلها ما أفاض فيه بتوضيح
موقف محتال من الناس يقدم إليك معروفاً بسيطاً ليحصل منك على ولاء تام ،
وهذا يخدع الناس ويرتقى الجميع في أحضان عطاته حتى إذا تمكن منهم ظهرت
نواياه التي أخفاها من قبل ليتأن منهم شر مثال . وهذا الصنف يجده الإنسان
دوماً في مجتمع تكون أفراداه ، خلقت ضمائر بعضهم من صدق النصيح وبدل
الخير نوجه الخير . وهذا ما عناه بقوله (رباعية ٢٩) .

لا تخدعك محتاج إليك إذا في ما يسرك من أمواله بدلا
إن ابن آدم لا يعطيك بعجنه إلا ليأخذ منك الثور والجملا
جهد البرىء طباع لجرمين وما شوا عليه تجلب الأجلا
لو يعرف الكثير أن القائم على تسميته يضرون الشرما أكلا

إن هذا التصوير الذي صورته فرحات في تلك الرباعية يدل دلالة قوية
على بعد نظره بفعل المحتالين في المجتمع ، وانهم يسعون لتجريدته من القيم التي
نعل شأنه بما يرمسونه في نفوس الآخرين من حيل مكتملة النج شديدة

النُور في النفوس تُؤدى بأصحابها إلى الهاوية .

وهناك صورة انسانية يظهرها فرحات في ابداع سوارى بان شر الأصدقاء من يتال على صاحبه لينال منه ما يريد ، فان كان به حاجة إلى ما عند صاحبه تظاهر هذا الذي أخذ منه كل شيء بأنه لا يملك شيئاً ، وتلك اغنى الأصدقاء وما ندخل بعضهم في عداد المحتالين ، والصدق من يصدق صاحبه في كل شيء ، ويحافظ على قيم المجتمع والانسانية كاتمة بينه وبين اصدقائه دوماً ولا تغيره ثوب الدهر ، اما من يأخذ ولا يعطى فهذا من أشر خلق الله خلقاً (رباعية ٩٤) .

وقائلة أراك حلیم هم وصحبتك يرغون بأن تسراً
فقلت لها إذا وقت صحبي ورغبتهم فقدت وقتاً شراً
دعيني من تلقهم فإنني سم من كل أهل الأرض أدري
لواستوهبتهم زراً لثوبي لمت ولم أجِد لثوب زراً

ب - التستر وراء طباع خفية : يتستر الانسان في حياته في المواقف العديدة بصورة متباينة ومن تلك ما يخفيه الانسان من الخبث والغدر ويتظاهر بالطيبة وحسن النية وصدق الطوية : فهذا فرحات تصور الانسان في تلونه وغدره بأنه احط منزلة من وحوش البراري وحيثان البحار ، وما صور فرحات ذلك الا تنفيراً للناس وحثاً لهم على السيرة الحميدة والبعد عن ان يكون للانسان ضحايا فصادد اليوم ضحية الغدر ، وتلك قيم متقابلة بين العباد ، (رباعية ٢٤) :

المرء شر يباع البر قاطبةً خبثاً وشرُّ تنانين البحار معاً
قولوا عن الذئب ماشتمتم فسامعكم بمثل غدر ذئاب الناس ما سمعاً
الذئب يترك شيئاً من فريسته للجائعين من الذؤبان إن شيعا
والمرء وهو يداوى البطن من بشي يسعى ليلسب طواوي البطن ما جمعاً

وعن كون الانسان ابن ليثته يترجم عما فيها في كل سلوكه يحدثنا فرحات حديثاً اجتماعياً صريحاً عن ان الانسان يتصرف في حياته وفق نوايس

متوارثة في مجتمعه ، وعلى الانسان ان يقدر تصرف كل فرد وفق ما عرف من قومه وتعلم منهم من قيم ، وهذا ما يقوله علماء الاجتماع ان الانسان وليد بيئته وسلوكه نهج مها (رباعية ٢٧) .

ما المرء في الكون إلا ابن لبيته فانظر لمختلف البيئات واعتبر
إني درست طبايع الناس محتبرا مافي النفوس وليس الخبز كالخبز
لا يطلب الحرف فهماً في الجميع ولا ينهي من البسدي ما
ينهي من الحضري
إن كان ينطحني البقار لأعجب فالتطح مكسب من عشرة البقر

ومن هذه الصور التي يبرزها الياس فرحات ما نراه في قوله حين يجذر من جفاء الناس من ان الآباء يسهون دوماً إلى تلقين الأبناء دروساً في الحنان وحيد الصفات ، ولكن يغلب التطبع بالجفاء وقسوة القلب أحيانا فلا ينبغي ان يسلم الانسان بما يراه فيهم من قيم وإنما عليه ان يجذر فالعذر في الطبع وليس ممة بارزة في وجوه الناس (رباعية ٧٨) .

بدين والد ولدنا حنانا ولكن لا على أمل الوفاء
فإن الناس ليس لهم وفاء وقد جمعوا الكثير من الجفاء
هم الغيلان في هزل وجد وفي ضيق المعيشة والرخاء
فلا يفررك إنك لست تلقى على أنيابهم أثر الدماء

وهناك نوع من الناس يضيقون فرحا بالدهر ويتحدثون دوماً ان سبب بلواهم في دهرهم وان ما يصيبهم من فعل الزمن ، وهؤلاء يترموها بالحياة وضاقوا بها ، وما أدركوا أن ما أصابهم لم يكن إلا من عمل أيديهم ، وضرب بذلك مثلا لمن يدعى التدين والدين منه برىء ، وان الناس يخشى بعضها بعضا لما اتصفوا به من صفات الغدر والقهر بعضهم لبعض ، ولعل فرحات في ذلك يتدب ما حدث في المجتمع البشري ويصير الناس بما ينبغي عليهم اتخاذه منهاجا وسلوكا لتحقيقا للقيم الاجتماعية وبناء للقواعد الانسانية على أساس من الصدق والوفاء والبعد عمالا ينبغي ان يتصف به الانسان (رباعية ١٦) .

نشكو عنى الدهر لا أساس لها فالدهر لم يرتكب إثماً ولم يجر
لا يقفل البشر الأبواب إن رقدوا خوفاً من الذئب بل خوفاً من البشر
بالإسّ الدين عقداً يستعبد به قد صار عقدك أصدقا بلا درر
مات الزفأ ومات الفضل واحتلجث في صئر عرض الورى أنفاسُ محضر

ويدهن فرحات ان الاحتكاك البشرى يولد في الانسان صفات جديدة
يجلو معدته ، ويظهر جوهره حين يسلك في تعامله معهم ما ينشأ عن
شخصيته ، وان كثيراً من الناس تدور بهم الدنيا ولا يدورون معها تعلقاً لما
حوته من البشر واخذ الحميد منه ونبذ السوء ، فعلى الانسان ان يأخذ من من
سلوك الناس صوراً يعتز بها وان يكون دائماً في تلاحم معهم بناء لقيمه ، ولا
يجد ذلك بين سطور الكتب فسجل المعرفة الحياة وكشفها الاحتكاك في
التعامل البشرى (رباعية ٤٣) .

شرق وغرب فقد يفتى أخوسفر عن كل ما تجمع
الأسفار من حكم
والمرء لا يرتقي مهما تلا كتباً إلا إذا احتك بالأفراد والأمم
كم في البرية من حى تنور به الذئب غبراء وهو على الغبراء كالصنم
نور الوجود على عينه مبشر ونفسه لم تنزل في ظلمة العلم

وهناك قضية اجتماعية هامة تناولها فرحات في بناء المجتمع على قيم انسانية
سليمة وهى خداع بعض الناس بما يرتديه الآخرون ، خاصة ما يخدع به
الشباب حين يقبلون على اختيار شريكة الحياة ، فيجرون وراء فاجر الثياب
دون التمعن فيما تحويه من انسانية تليق به بلوكا ، وتمناً معه حياة ، والكيس
من تبصر ل امورهم ولم يخدع بما يبهرو من مظاهر خداعه (رباعية ٥٩) .

نظرت إلى النساء تبهذ زوجا تكون من الفواضل والحسان
لما ميزت طهرا من فساد ولا حساً أكيدا من دهان
ففى صبح الوجود نرى سباقاً تقوم به العجائز والغواني
وف الأزياء وهى كما تراها تشارك الحرائر والزواني

ج - البعد عن النفاق ، قضية النفاق في القول أو السلوك قضية شائكة شغلت الناس والمصلحين دوماً ، وضاقوا بها بحثاً إلا حل لها فلم يبتدوا إلا إلى الرضوح ميلاً وصدق القول منهاجاً ، وعدم الضجر والضيق ملوكاً ، فما أحسن ان يكون الانسان واضحاً في كل تصرفاته ، ويصدق لسانه ما استكن في صدره وبعد ذلك عن النفاق كما قال فرحات (رباعية ٧٤) .

إذا ضاق المكان على ابن أثنى يصيح مولوداً ضاق الزمان
وكم صدق الزمان بيه قولاً وسالمهم فعادوه ومانوا
جنان المرء تخفى الشر عمداً وتبدي العين ما تخفى الجنان
وبين الفكر والقول ارتباط فإن عثر النهى عرج اللسان

وف نفس المعنى قال فرحات رباعية اخرى (٨٦) :

تافر أصفراك ورب رأس تغفر من تافر أصفريه
لسانك مظهر لأخيك حياً وقلبك مضمر حقداً عليه
نأى الإخلاص عنك فليس يدنو إليك ولست مقرباً إليه
ولست بخائف فتكات دهر لديك من الخيانة ما لده

ويصور لنا كيف يحال المنافق على ضعف النفوس بأساليه حتى يجذبهم إليه ، وسرعان ما يكشفون خبثه وسواد سريرته وضراره فعلة في المجتمع تحطماً للقيم الانسانية (رباعية ٨٩) :

تموة كل متذلل حقيقر فتملاً منه فارغة الرعوس
وتجلس لاختلاق أحط قول فغرى الواقفين على الحلاس
فأنت أضر من حشر حيث تنفس بين صافيه الكؤوس
وأنتع من حديثك سم أفعى يبيت ولا يؤثر في النفوس

ويتطرق فرحات إلى نفاق المدح والقول كما تعرض لنفاق المظهر وما يخفى وراءه ، ويدعو الانسانية إلى ان يكون الخير كالجوهر قولاً وفعلاً ، ويفضح اولئك الذين يقولون مالا يؤمنون به نفاقاً وتسترا وراء طلاق اللسان وحلو البيان (رباعية ٩٣) .

يحيل البعض نغمات مدحنا يوزر في عمول الجاهلينا
 فهذا فاضل حرٌ وهذا كريمٌ محسن يعطي المغينا
 وعندى أن هذا المدح كذب يوارى تحت بهرجة اليقينا
 فإن بغتسى حرٌ كريمٌ وأن سار يلقى معوزينا

ويعلن براعته في اختيار الناس وصدق فراسته فيما يخفون من سمات
 خلقية ، ويفضح امرهم بأنه استطاع ان يكشف عنهم ما يسترون به عيوبهم
 الاخلاقية ويظهر حقيقتهم عاريه امام العيان حفاظا على كيان المجتمع وتقية من
 شرورهم ، وحشا على تجنيب مهما كان الأمر ، وفي ذلك قول فرحات
 (رباعيات ١٥٦) .

انظر الى هذا اللئيم فإني أدري به من أمة الخرباء
 ما شيته يوماً فندست خياله عرضاً فأثر لؤمه بجذائي
 متقلب الأطوار الأفكار والأقوال والأفعال والآراء .
 عبدٌ مع العبدان حرٌ بيننا كالماء يأخذ لون كل بناء

سابعاً : بين العلم والمال :

لقد أدرك فرحات ان المال والعلم سلاحان في بناء البشرية ، وان من
 ملكهما أو كلاهما صار في مأمن من عوادي الدهر وفضل ملكية العلم عن
 خزائن الأرض ادراكا طيبا ان العلم يجلب المال متى عقل الانسان تصريف
 اموره وادرك قيمة علمه في بناء المجتمع . وبسطاء الناس من يظنون قيمة للمال
 تعلقوا على قيمة العلم . (رباعية ٥٢) .

مالي أرى الناس عقلاً فإن جمعوا شيئاً من المال صاروا كالجمانين
 والعلم والحلم سلطانان عندهم أما النصارى فسلطان السلاطين
 يصي الخواطر زهو الأغنياء ولا تصي الخواطر أجماد الأساطين
 كل امرئ ، يمتنى مال « ركفلر » وقل من يتسنى علم « داروين »

فما أبدع تلك المقارنة من ان الجهلاء يتسبون مال زعماء الرأسمالية بينما
الفلة من الناس من يمتنى أن يكون له جزء من علم داروين صاحب نظرية
النشوء والتطور التي تعبر عن فهم علمية دقيقة وبحث لاعمال العقل .

ويؤكد فرحات قيمة الحلم في دعوته للناشئين حثا لهم ان يتعلموا العلوم
نافعة ليدرکوا قيمهم في الحياة ، ويصعدوا إلى مراتب الرفعة والسمو الانساني
لما ارتفعت امة بجهلاتها ، ولكن على فكر العلماء ورجاحة عقولهم تقوم بناء
محاضرات ، ونزق الامم وتتسابق بأبحاثها العلماء في شتى مجالات الحياة مما
دأب عنى عنه ، فيدعو إلى ذلك قائلا (رباعية ٦٦) .

أراك فتى نلوح له الأمانى فيحجبها من الجهيل الغبار
تعلم ما استطعت فكل علم به نفع وليس به عسار
يكلل كل ذى علم شعاع إذا ما كلال الأبطال غار
وجهلك حين يبدو العلم يغدو كظلك حين ينتصف النهار

وما أرفع ما يرفع تعلم الادب صاحبه إلى عليا الدرجات ، وان ظن
بعض صغار النفوس ان الرفعة تكون للانسان بقدر ما يحصل عليه من مال ،
ونلك قيمة رفيعة في حث الانسانية على التزود من العلم بيزاد الادب الترفيع ،
فهؤلاء الذين صفت نفوسهم وخلد ذكركم ، وهذا ما أشار إليه فرحات بقوله
(رباعية ٦٧) .

فما لبَّ اللباب من المعالي وللمنظاهرين بها القشور
نعب الصاعدين إلى دراها ونصرهم إذا عزَّ النصر
ونقصي الخائمين على الدنيا كما حامت على الخفيف النور
يز نفوسنا أدب يسير وليس يبرها ذهب كثير

وبعد :

فإن هذه الرباعيات التي تناول فيها اليباس فرحات المقاييس والقيم الاجتماعية في رحاب الإنسانية لتظهر بجلاء عن نفس شفاقة للشاعر ، وفكر متوقد وروح وثابة لإصلاح المجتمع ، فلقد أدرك فرحات أن من أهم مهام الشاعر ورسالته في الحياة تقييم من فيها حتى تستقيم لهم الحياة ويسعد الجميع بما يتلون من احترام الآخرين وتقدير إنسانيتهم .

وإن الواضح من استعراض الفكر الإنساني خلال تلك الرباعيات ليبن عن اصالة ثقافة الشاعر أنه استقاها من جامعة الحياة ، فقد عاش الفقراء وألف حياتهم ، وصادق الأغنياء وهجر مودتهم ، والتحم بأواسط الناس وأخذ عنهم ، ودار مع الزمان دورات العسر واليسر وأدرك ما فيها من سوازين مختلفة ، وفهم ما يغضب الناس وما يسرهم ، ووطن نفسه على قبول كل أمر من الأمور وكأنه هيأ نفسه مصلحا اجتماعيا أو واعظا دينيا يوقظ في الناس الشعور بإنسانيتهم ويضرب لهم الأمثال من الحيوان والجماد النبات لعلهم يتفكرون .

لقد كان فرحات صريحا كل الصراحة حين نظم تلك الرباعيات ومثله لم تكن له تلك الشجاعة ليهتف إن هذا هو الفساد وذاك العلاج الناجح له ، وكان بعض زملائه في المهجر يركن إلى الرمز وسيلة للتعبير ، ويقص القصص اظهارا لما يدور في نفوسهم ، ولكن فرحات فتح باب الصراحة على مصراعيه ونادى هلم للإصلاح وبعنا عن الانفساد فحياة الإنسان أرق . من إن تدنس أو يهان .

وحين كان يحتاج فرحات إلى التبسط في القول كان يختار الفكاهة أسلوبا ليفهم العامة قبل الخاصة بما يدور في خلده ، وليعلن على الملأ إن هاكم فرحات الناثر الهادئ المثقف البصير المصلح الاجتماعي بما وعاه عن معايشة مخلوقات الله من حيوان ونبات وجماد ومن احتك بهم من بنى الإنسان ، وهذا ما حبنى فيه وجعلني أهتم برباعياته .

فليت شعراء المهجر أو من جاء بعدهم كان لهم هذا السبق في عيط

الإصلاح الاجتماعي واداءه الأساسى لخدمة تامين سعادة فوجات فى ايام
معه ذات وعمق فكره وسماحه فى وسائل حكمة

والله المتعان على ما يصنعون

دكتور

عبد الرحيم محمود زلط